الفصل الرابع

الطاعنون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٤٦]

(١)

كان يهود المدينة منذ قديم الأزل، يجدون صفة رسول الله ﷺ عندهم فى التوراة، وكانوا كلما دارت عليهم الدوائر، أو أغار عليهم نفر من العرب يؤذونهم، يسألون الله عز وعلا أن يبعثه فكانوا يقولون:

– اللهم ابعث النبى الأمى الذى نجده فى التوراة، والذى وعدتنا أنك باعثه فى آخر الزمان.

فإذا ما قاتلوهم، يستفتحون عليهم، ويقولون:

– اللهم إنا نستنصرك بحق محمد النبى الأمى: إلا نصرتنا عليهم.

ولأنهم كثيرا ما انتصروا بدعائهم، كان الأوس والخزرج – منذ عاد كبراؤهم من مكة يحملون دين الله – يبشرون قومهم، ويحضونهم ليدخلوا فى دين الله، ويحذرونهم أن يسارع اليهود إلى الإسلام، فتكون لهم الكثرة والفضل عليهم، ولكن اليهود لم يسعوا ولم يسارعوا إلى داعى الحق؛ على رغم كونهم كثيرا ما أعلنوا الأوس والخزرج منذرين ومخوفين، بقدوم النبى الخاتم، وأنهم سينضمون إليه، ويحاربوهم معه، فيقتلونهم، ويشردون بهم، فما زالوا ينظرون إلى الأوس والخزرج – على رغم مرور مئات السنين على هجرتهم من اليمن إلى طيبة – على أنهم دخلاء على بلدهم: وأن هودا هم وحدهم الأحق بطيبة وما حولها، على رغم أنهم هم أيضا قد جاءوها مهاجرين، فلم تكن اليهود هى الأصول الأولى التى سكنت طيبة، وكانوا يقولون:

– سيبعث نبى هذا أوانه، نؤمن به ونقتلكم معه قتل عاد وآرم..

وظن الأوس والخزرج أن هودا ينتظرون قدوم رسول الله إليهم، ليعلنوا إسلامهم، فلما وفد رسول الله ﷺ إلى طيبة، ظل اليهود على دينهم، ولم يتسابق بنو قريظة وبنو النضير على رسول الله ﷺ، ليدخلوا فى الإسلام، بل إذا بهم لما عرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام يرفضون، وقالوا:

– سمعنا وعصينا.

يعلمون ﴿١٤٦﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآية ١٤٦].

وإنه لقول الحق، فلقد كان اليهود يقولون دائما:

– والله إننا لأعرف برسول الله منا بأبنائنا، من أجل الصفة والنعت الذى نجده فى كتابنا، أما أبناؤنا فلا ندرى ما أحدث النساء.

ولكن ها هم أولاء يفعلون اليوم مع محمد ﷺ، ما فعله أجدادهم مع موسى عليه السلام، فجاهدوه وأجهدوه ليا بألسنتهم، رافضين الاستماع إلى صوت العقل، منكرين لما سبق لهم أن قالوه، فها هم أولاء يدعون أنهم ما قالوا بمقدم النبى الخاتم، وما استفتحوا باسمه على أعدائهم حتى ينصرهم الله، وما قرءوا فى التوراة، أو سمعوا الآباء ينقلون إليهم عن الأجداد أن اتبعوا النبى العربى الذى سيفد إليكم!!.

ولم يكفهم إنكارهم، وقالوا منكرين وطاعنين فى نبوة بعض أنبياء الله، فقال أحبارهم:

– ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا، والله ما كان إلا ساحرا.

فأنزل الله علا شأنه، وجل قوله:

– ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآية ١٠٢].

بل إنهم لما أعيتهم السبل، تجاوزوا كل حدود العقل، وأعلنوا طعنهم فى كل الرسالات، وقالوا: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة الأنعام – الآية ٩١].

فأنزل الله نقضا لقولهم: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة الأنعام – الآية ٩١].

(٢)

ولم يتوقف بهم الحال عند حد الرفض والعصيان، وإنكار نبوة من سبقوا، بل أظهروا إنكارهم لنبوة النبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ، وراحوا يخوضون قائلين لرسول الله:

- إن لكل نبى ملكا من الملائكة يأتيه من عند ربه بالرسالة والوحى، فمن صاحبك حتى نتبعك؟.

فلما قال رسول الله ﷺ:

- جبريل.

طاعنه اليهود، قائلين:

- ذاك الذى ينزل بالحرب وبالقتال، هو عدونا، لو قلت إن صاحبك ميكائيل الذى ينزل بالقطر والرحمة لتابعناك.

ونزل على نبى الله ﷺ رد رب العالمين: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة البقرة - الآية ٩٧].. وحين سمعوا بتوعد رب العالمين لهم بالعذاب، زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وما هم بمعذبين، وكذبهم الحق سبحانه وتعالى، وجاءهم السؤال مفحما:

- ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [سورة المائدة - الآية ١٨].

لم يستسلموا، وراحوا يهاجمون دين الله، وقالوا إن «ورقة بن نوفل» هو من ألقى على محمد هذه الكلمات، ولقد كان «ورقة» من قبل يهوديا، ثم ترك اليهودية إلى النصرانية، ولكن الله سبحانه رد عليهم كذبهم، وتنزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ وأنبأه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة النحل - الآية ١٠٣].

وصدق رب العالمين، فلقد كان ما يتلو ورقة بلغة العجم، بينما تنزل القرآن بلغة عربية، تكريما للنبى العربى ﷺ، ولم يستح اليهود، بل راحوا يدعون بغير ما جاءهم به موسى من عند ربه، وهذا غير مستغرب، فقد سبق وأنكر بعضهم النبوة عن موسى عليه السلام، بعد أن خاف كهنتهم على سلطانهم، وخاف أغنياؤهم على ثرواتهم، وحرص هؤلاء وهؤلاء على الجاه الذى يجدونه فى الدنيا، ويمكنهم من أن يختصوا أنفسهم بالكبر والتكبر والتعالى على خلق الله.

فإذا ما اشتد عليهم الدليل، وأعوزهم المخرج فلم يجدوه، كانوا يمالئون رسول الله ﷺ، وهم يضمرون غير ما يبدون، فإذا لقوه، قالوا:

- راعنا.

وهى كلمة تحمل معنيين، معناها بالعربية: طيب يحمل التقدير والعرفان، ومعناها بلغة اليهود: يحمل السخرية والاستهزاء، وما أرادوا غير الأخير، طعنا فى نبى الله ﷺ، ونزل جبريل عليه السلام، محذرا وموضحا، بقول الله عز وعلا علوا كبيرا: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا

وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة النساء الآية ٤٦].

ومن أجل هذا ما إن سمعها منهم «سعد بن معاذ» وكان يعرف لغة اليهود، حتى ذهب إلى كبرائهم غضبان، وقال لهم:

– عليكم لعنة الله، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبى ﷺ لأضربن عنقه.

قالت اليهود:

– ألستم تقولونها.

وكان بعض المسلمين يقولونها لرسول الله ﷺ، لذا نهاهم الله عن ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآية ١٠٤].

ولم يعد المسلمون لقولها، أما هود فلم يرتدعوا، واستمروا على كراهيتهم لرسول الله ﷺ، وفى ليهم للكلام ليا.

مر ببيت رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقالوا:

– السام عليكم.

فأجابهم رسول الله ﷺ:

– وعليكم مثل ما قلتم.

وغضبت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وقالت لهم:

– عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم.

قال لها رسول الله ﷺ:

– بالرفق، وإياك والعنف والفحش.

قالت أم المؤمنين رضى الله عنها:

– أولم تسمع ما قالوا؟!.

قال رسول الله ﷺ:

– أولم تسمعى ما قلت، رددت عليهم ما قالوا، فيستجاب لى فيهم، ولا يستجاب لهم فى.

وحين أعيتهم الأقوال والادعاءات، قالوا:

– إن محمدا يتجه فى صلاته إلى المسجد الأقصى تابعا لقبلتنا، وإنه بهذا قد تنازل لنا عن نصف دينه.

ولما بلغ قولهم رسول الله ﷺ شق عليه، ورفع وجهه إلى السماء وراح يقلب بصره ضارعا إلى الله أن يرد كيد اليهود.

(٣)

وعلى رغم هذا جميعه، أعلن رسول الله ﷺ كتاب العهد بينه وبينهم، فلقد أراد أن يوحد جهوده لتربية الأجيال الجديدة من المسلمين، ولإنشاء مجتمع المدينة على أسس إسلامية، توضح العلاقة بين المسلمين، وغيرهم من أصحاب النحل الأخرى.

وكتب رسول الله ﷺ معاهدة بذلك، جاء فيها:

- «بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبى بين: المسلمين من قريش وطيبة، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس».

المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الحارث على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو جشم على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النجار على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى،وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وإن المؤمنين لا يتركون ذا غرم مفظع بينهم، بل يجب أن يعطوه بالمعروف فداء أو عقلا. وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو سعى بينهم بظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم.

ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن.

وإن ذمة الله واحدة، يجير عاليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

وإن من تبعنا من يهود، فله النصر والأسوة،غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

وإن كل غازية غزيت بها معنا يعقب بعضها بعضا.

وإن المؤمنين يكف بعضهم عن بعض، ويعاون بعضهم بعضا فى سبيل الله.

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا فإنه يقتل إلا أن يرضى ولى المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مجرما أو يحميه أو يؤويه، وإن نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ.

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف.

وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف.

وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف.

وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف.

وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف.

ومثل ذلك بقية اليهود، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يهلك إلا نفسه.

وإن البر دون الإثم، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم.

وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته.

وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب من أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون إثم، وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره.

وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم طيبة، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم.وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحصن، من أهل هذه الصحيفة.»

٤

أعلن اليهود رضاهم عن المعاهدة وأقروا بها، وهو إقرار المغلوب على أمره، وإن أضمروا غير ما أبطنوا، وأصبحوا كالسوس الذى ينخر باطن الخشب دون ظاهره، ليهلكه ويدمره، فجعلوا كل همهم أن يلغوا الأثرة التى أبداها الأنصار للمهاجرين، فكانوا يتقربون إلى الأنصار، يظهرون لهم النصح، ويضمرون الشر، قائلين:

– لا تنفقوا أموالكم على من أسلم، فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهاب دين محمد، ولا تسرفوا فى الثقة، فإنكم لا تدرون علام يكون محمد ؟.

فأظهر الله قولهم، ونزل جبريل بقول عالم الغيب: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٣٧].

كف اليهود عن وسوستهم للأنصار، بعد أن كشف الله سترهم، وانقلبوا يحاولون الوقيعة بينهم، فلقد هالهم ذلك التآلف الذى ساد بين الأوس والخزرج، فأصبحوا بفضل من الله إخوانا متحابين، ولقد حاولوا الوقيعة بينهم أكثر من مرة، ولكن الله أطفأ نار الفتن التى أرادوا إشعالها، لكنهم لا ييأسون، ويكررون المحاولة عقب المحاولة، وذات يوم جلس شاس بن قيس - وهو من زعماء اليهود - وراح يدير الحديث بين جماعة من الأنصار، ليلتف به كالأفعى ويصل إلى ما كان فى القديم بين القبيلتين من قتال، حتى تذاكر القوم ما قاله شعراؤهم، ونزغ الشيطان اللعين بينهم، فاشتد القول، وتنابذوا، واستيقظت الفتنة، فتنادوا إلى السلاح، وقالوا:

- تعالوا نرد الحرب جذعا كما كانت.

ونادى رجل من الأوس:

- يا لأوساه.

ونادى رجل من الخزرج:

- يا للخزرج.

وتحول كل فريق من القبيلتين إلى الانحياز لقبيلته، وتواجهت جموع القبيلتين مستنفرين للقتال، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ وكان فى مجلسه بالمسجد، فأسرع إليهم ومعه نفر من المهاجرين، ووقفوا يفصلون بين الفريقين، ليحولوا بينهم وبين التضارب، وقال الحبيب ﷺ مذكرا، قائلا فى أسف:

- يا معشر المسلمين، الله، الله، أدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام، وألفكم به، وقطع عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألف بينكم بالإسلام؟!.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران - الآيات ١٠٠: ١٠٢].

وماتت نعرة الجاهلية فى قلوب الأنصار، وطفرت الدموع أسفا على ما فرطوا فى حق الله، وهرب الشيطان من بينهم وهو يرى انبعاث نور الله فى القلوب، وانتبه القوم إلى أنهم قد سقطوا فى الفتنة، فتمكن منهم الشيطان ونزغ بينهم، فألقوا سيوفهم وحرابهم، وأزاح الله ما بهم من طائف الشيطان، وتعانقوا فى صفاء الاخوة، وأكلت نار الفشل أكباد اليهود.

وراح إبليس يتلظى من الغيظ..

٥

على رغم كل ما أضمر اليهود، وأعلنوا، وكادوا، لم ينكث رسول الله ﷺ فيما واثقهم عليه، بل كان يصبر، ويجادلهم بالتى هى أحسن، فهكذا علمه ربه، وهم لا يستحون من الله سبحانه وتعالى، ولا من رسوله ﷺ، فحين سمعوا بقول الله عز من قائل:

- ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [سورة الإسراء - الآية ١٠١].

جاء رسول الله ﷺ رهط منهم، يسألونه عن ماهية هذه الآيات التسع، وكأنهم سوف يعجزونه، ويوقعون به فى شراك الجهل، ولكنه ﷺ قال لهم:

- لا تشركوا بالله شيئا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببرئ إلى سلطان، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، وعليكم يا يهود خاصة: ألا تعتدوا فى السبت.

فقبلوا يديه ورجليه قائلين:

- نشهد أنك نبى.

قال رسول الله ﷺ:

- ما يمنعكم أن تسلموا؟.

قالوا:

- نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا يهود، فنحن ضعفاء بينهم.

ولم يكن يهود المدينة هم المجادلين وحدهم، بل لقد استقدموا حبرين من عتاة العلم من أحبار الشام، فلما دخلا على النبى ﷺ، عرفا فيه مما كان مذكورا عندهم فى الكتاب، فقالا له:

- أنت محمد؟.

قال رسول الله ﷺ:

- نعم.

قال الحبران:

- وأنت أحمد.

قال رسول الله ﷺ:

- نعم.

قالا:

- نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها، آمنا بك وصدقناك.

قال رسول الله ﷺ:

- سلا ما تريدان.

قالا:

- اخبرنا عن الأعظم شهادة فى كتاب الله.

قال رسول الله ﷺ:

- قال الله عز وعلا ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران - الآية ١٨].

فشهد الحبران، وأسلما، وحسن إسلامهما.

ساء يهود المدينة ما حدث فشحذوا الهمم، واستنجدوا بشياطينهم، ثم جاءوا رسول الله ﷺ يواصلون المطاعنة، قائلين:

- يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟.

غضب النبى ﷺ أشد الغضب لربه، حتى امتقع لونه، وجاءه جبريل عليه السلام، فقال له:

- خفف عليك يا محمد، يقول ربك تبارك وتعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [سورة آل عمرن - الآية ١٨٦].

وصدع نبى الله للأمر، وهدأ من انفعاله، وتنزل من عند الله عز وعلا علوا كبيرا، ردا على ما قيل:

- ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الإخلاص - الآيات ١ : ٤].

- صف لنا يا محمد ربك: كيف خلقه، كيف ذراعه، كيف عضده؟.

فاشتعل غضب رسول الله ﷺ لربه ثانية، فأتاه جبريل فهون عليه، ونزل قول الله سبحانه وتعالى:

- ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الزمر - الآية ٦٧].

وبعد أن سمعها هود، قاموا يتكفأون على وجوههم، وقد أخزاهم الله.

ولكن هل للمطموس على قلبه أن يدرك؟..

جاءت رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقالوا:

- يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنها، لا يعلمها إلا نبى.

قال رسول الله ﷺ سلونى عما شئتم، ولكن اجعلوا لى ذمة الله عز وجل، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن حدثتكم لتتبعننى.

قال اليهود:

- فذلك لك.

ثم استطردوا قائلين:

- أربع خلال نسألك عنها: أى طعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟.. وأخبرنا كيف يشبه الولد أمه، وإنما النطفة من الرجل؟.. وأخبرنا كيف هذا النبى الأمى فى النوم، ومن يليه

من الملائكة؟.. وأخبرنا ما هذا الرعد؟.

قال رسول الله ﷺ:

- أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا طال سقمه، فنذر لئن عافاه الله عز وجل، ليحرمن أحب الطعام والشراب، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها.

قالت اليهود:

- اللهم نعم، اللهم اشهد.

قال رسول الله ﷺ:

- أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان الولد والشبه بإذن الله عز وجل، إن علا ماء الرجل كان الشبه للرجل بإذن الله تعالى، وإن علا ماء المرأة كان الشبه للمرأة بإذن الله تعالى.

قالت اليهود:

- اللهم نعم، اللهم اشهد.

قال رسول الله ﷺ:

- فأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن النبى الأمى تنام عينه ولا ينام قلبه.

قالت اليهود:

- اللهم نعم، اللهم اشهد.

ثم استطردوا قائلين:

- أنت الآن حدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك.

قال رسول الله ﷺ:

- وليى جبريل، ولم يبعث الله عز وجل نبيا قط إلا وهو وليه.

قالت اليهود:

- فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك وصدقناك.

قال رسول الله ﷺ:

- فما يمنعكم أن تصدقونى؟.

قالت يهود:

- هذا عدونا من الملائكة.

وقال الله تعالى فيهم:

- ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[سورة البقرة - الآية ١٠٠].

وانصرف هود غير مصدقين، فما كانوا مؤمنين، وما كانوا يبحثون عن الحق والحقيقة، ولكنه الأمل

فـــى هزيمة رســـول الله ﷺ يداعب أحلامهم، لهذا لم يكفوا جماعات وأفرادا عن الســعى بطعنهم إلى المنتصر ﷺ.

٦

جاء رسول الله ﷺ، حبر من يهود فقال:

– أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟.

قال رسول الله ﷺ:

– فى ظلمة دون الجسر.

قال الحبر:

– فمن أول الناس إجازة؟.

قال رسول الله ﷺ:

– فقراء المهاجرين.

استطرد الحبر:

– فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟.

قال رسول الله ﷺ:

– زيادة كبد نون.

قال الحبر غير قانط:

– فما غذاؤهم على أثره؟.

قال رسول الله ﷺ:

– ينحر لهم ثور الجنة الذى يأكل من أطرافها.

واصل الحبر أسئلته مغتاظا:

– فما شرابهم عليه؟.

قال رسول الله ﷺ:

– من عين فيها تسمى سلسبيلا.

زفر الحبر وقد أفحم، فاسود وجهه من شدة الغيظ، وقال:

– صدقت.

جـــاء رســـول الله ﷺ، ثعلبة بن الحارث وهو مـــن يهود، ليواصل اللجاجـــة، فكأنه يواصل مقالة الحبر، قال:

– يا أبا القاسم أتزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟.

وهمس بمـا يضمر فى نفســه قائلا، قبل أن يسمع قولة الحق: « إن أقر بها خصمته».

قال رسول الله ﷺ :

– نعم، وتجدها فى كتابكم.

قال ثعلبة :

– نعم.

قال رسول الله ﷺ :

– والذى نفسى بيده إن أحدكم ليعطى قوة مائة رجل إلى المطعم والمشرب والجماع.

قال ثعلبة :

– الذى يأكل ويشرب يكون له حاجة !.

قال رسول الله ﷺ :

– حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل ريح المسك، فتضمر بطونهم.

جاءه يهودى، فقال :

– يا محمد أخبرنى عن النجوم التى رآها يوسف ساجدة له، ما أسماؤها؟.

فلم يجبه رسول الله ﷺ بشىء، وانصرف اليهودى يزوم منتصرا؛ فجاءه جبريل عليه السلام بأسمائها، فأرسل نبى الله ﷺ إلى اليهودى، يسأله :

– أتسلم إن أخبرتك بجواب سؤلك؟.

قال اليهودى فى تردد :

– نعم، أسلم.

قال نبى الله ﷺ :

– هى : حرثان، وطارق، والذيال، وذو الكنفات، وذو الفرغ، ووثاب، وعمودان، وقابس، والضروح، والمصبح، والفيلق، والضياء، والنور، رآها يوسف فى أفق السماء ساجدة له.

قال اليهودى :

– هذه والله أسماؤها.

وهرول منصرفا، ولم يسلم! !.

حين سمع اليهود من رسول الله ﷺ قول الله تعالى :

– ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة البقرة – الآية ٢٤٥].

قال فنحاص أحد زعماء يهود، وهم فى المدراس :

– والله ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغنى، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا أموالنا كما يزعم محمد، ينهاكم عن الربا ويعطيه لنا، ولو كان عنا غنى ما أعطانا الربا.

وسمع أبو بكر بما قال فنحاص فضربه على وجهه ضربا شديدا، وقال له :

– والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله.

وسمع رسول الله ﷺ بما حدث، فبعث إلى فنحاص يستدعيه، وواجهه بما حدث، وحاول فنحاص أن ينكر ما قاله لأبى بكر، فنزل قول الله سبحانه وتعالى مؤيدا للصديق فيما قال، مكذبا المنافق فنحاص:

– ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [سورة آل عمران – الآية ١٨١].

٧

اجتمعت أحبار اليهود فى بيت المدراس، وقد زنى رجل محصن بامرأة محصنة، فقالوا لبعض منهم:

– خذوهما إلى محمد فإنه قد أمر بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم أخذنا بها واحتججنا بها عند الله، وقلنا فتيا نبى من أنبيائك، وإن كنا نعلم أنه ليس بنبى، ولكنه ملك قومه.

فأتوا رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد، فقالوا:

– يا أبا القاسم، هذا رجل زنى بعد إحصانه، بامرأة قد أحصنت، فاحكم، فقد ولیناك الحكم فيهما.

فقال رسول الله ﷺ:

– ما تجدون فى التوراة؟.

فقالت اليهود:

– نفضحهما ويجلدان.

فأفتاهم نبى الله ﷺ بالرجم، فأنكروه، فلم يكلمهم، ونهض وصحبه إلى مدارسهم فوقف بالباب، وقال:

– يا معشر يهود أخرجوا إلىّ علماءكم.

فخرج علماؤهم إلى رسول الله ﷺ، فقال:

– أنشدكم الله الذى أنزل التوراة على موسى، ما تجدون فى التوراة على من زنى بعد إحصان؟.

قالوا:

– يحمم ويجبب.

قال عبد الله بن سلام:

– كذبتم فإن فيها آية الرجم، فأتوا بالتوراة.

فجاءوا بالتوراة فنشروها، ووضع حبر كفه فوق آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله ابن سلام:

– ارفع يدك.

فرفع الحبر كفه، فإذا آية الرجم ظاهرة.

قال عبد الله بن سلام:

– الله أكبر وصدق رسول الله ﷺ، والله يا رسول الله، إننا قد حدنا عن حدود الله لما فشى الزنا بين أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، وجلدناه، ثم اجمعنا على أن نأخذ بحد ينفذ على الغنى والفقير، فأجمعنا على التحميم والجلد، أما والله يا رسول الله إنهم ليعرفون أنك نبى مرسل، ولكنهم يحسدونك.

فقال رسول الله ﷺ:

– اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه قديما بالشهوة.

(٨)

حين ضاقت باليهود سبل الانتصار بالمجادلة ولى الكلام، لم يملكوا إلا أن قالوا:

– نحن أبناء الله وأحباؤه، ولن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى.

وأنزل الله عز وجل، على نبيه ﷺ:

– ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [سورة البقرة – الآية ٩٤].

وذهب إليهم رسول الله ﷺ، وقال لهم:

– إن كنتم صادقين فى مقالتكم، قولوا: اللهم أمتنا، فوالذى نفسى بيده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فمات مكانه.

وأصيب يهود بهلع شديد، وزاغت منهم الأبصار، وعاتبوا رسول الله فيما قال، ولم يتمنوا الموت.

ونزل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [سورة البقرة – الآية ٩٥].

(٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ

وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآيات ١٥ : ٨].

نبت صنف جديد من البشر على الحياة، لم يكن موجودا فى مكة، لأن المسلمين فى مكة لم يكونوا قوة ترهب الذين لا دين لهم، ولكن الوضع فى المدينة قد اختلف تماما عنه فى مكة، فالمسلمون هنا قوة وكثرة ووحدة، ولذلك دخل الإسلام تظاهرا ورياء من دخل، وهم لم يؤمنوا، فكانوا أشد خطرا على الإسلام والمسلمين من الكفار، ومن أهل الكتاب من يهود ونصارى، لأنهم كانوا يظهرون غير ما يبطنون.

كان «نبتل بن الحارث» من الذين دخلوا الإسلام نفاقا، وكان يجلس إلى رسول الله ﷺ ثم ينقل كلامه إلى اليهود، وكان يقول:

– إنما محمد أذن، من حدثه شيئا صدقه.

فأنزل الله عز وعلا، قوله: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة التوبة – الآية ٦١].

ولقد جاء جبريل رسول الله ﷺ، فقال له:

– إنه يجلس إليك رجل أذلم، ثائر الشعر، أسفع الخدين، أحمر العينين، كأنهما قدران من صفر، كبده أغلظ من كبد الحمار، ينقل حديثك إلى المنافقين، فاحذره.

وقد كانت هذه هى صفات «نبتل بن الحارث»، فطرده المسلمون من مسجد رسول الله ﷺ شر طردة.

(١٠)

جاء إلى المدينة وفد من نصارى نجران، فى ستين رجلا فيهم أربعة عشر من أشرافهم، ومن بين الأربعة عشر هؤلاء فوضوا ثلاثة يتولون أمرهم هم: العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم، ولا يصدر عنهم أمر إلا عن رأيه، واسمه: عبد المسيح، والسيد وهو منظم وقتهم، وإقامتهم وترحالهم، واسمه الأيهم، وأسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم وهو أبو حارثة بن علقمة، وكان من أعلم قومه بأمور دينهم، حتى لقد بنى له الحكام الكنائس وجعلوا أموالهم طوع بنانه، تقربا إليه وتوددا، وطلبا لبركته.

توجه الوفد إلى مسجد رسول الله ﷺ، وانضم إليهم بعض نفر من أحبار يهود، لمجادلة رسول الله ﷺ فى أمر دينهم، ولقد حل مع وصول النصارى ميقات صلاتهم، فقاموا إلى ركن من المسجد فصلوا إلى المشرق، فلما أراد بعض الصحابة التعرض لهم، قال لهم رسول الله ﷺ:

– دعوهم.

ولما انتهوا، أقبلوا على رسول الله ﷺ، وتحدث العاقب والسيد والحبر، وتحاج الحضور، واختلف اليهود والنصارى حين قال اليهود: إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا، وقالت النصارى إنما كان إبراهيم عليه السلام نصرانيا، وقال نبى الله ﷺ بما تنزل من عند الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران – الآيات ٦٥: ٦٨].

فتطاول واحد من أحبار يهود، قائلا لرسول الله ﷺ:

– أتريد أن نؤمن لك، ونعبدك كما تعبد النصارى عيسى؟.

قال رسول الله ﷺ:

– معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، فما بذلك بعثنى الله، ولا أمرنى، يقول ربى سبحانه وتعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة آل عمران – الآية ٧٩].

وتحدث النصارى فعرضوا ما يؤمنون به فى شعبهم، فقالوا: إنهم فى مجموعهم يؤمنون بأن المسيح هو الله، وسبب ذلك عند بعضهم، أنه كان يحيى الموتى، ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا؛ ويحتج البعض الآخر منهم بأن المسيح هو ابن الله، فلم يكن له أب يعلم، وقد تكلم فى المهد، وهذا جميعه لم يصنع لولد آدم من قبل؛ وهؤلاء وهؤلاء يجمعون بأن السيد المسيح ثالث ثلاثة، ودليلهم أن الله يقول فى الإنجيل حين يتحدث عن ذاته: فعلنا، وقضينا، وأمرنا، وخلقنا، ولو كان وحده لقال: فعلت، وقضيت، وأمرت، وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم.

فصمت عنهم نبى الله ﷺ، فأنزل الله قراءنا فيما قالوا، فقرأه عليهم:

– ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ

وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴿٥٠﴾ [سورة آل عمران: الآيات ٤٥ : ٥٠].

فلما سمعت النصارى ما تنزل من عند الله، اقشعرت جلودهم، وتغشتهم تجليات الحقيقة، فما عادوا يدرون من أمر أنفسهم شيئا، فران عليهم صمت عميق، ولم يلفظوا بكلمة؛ وحين وجه إليهم رسول الله ﷺ الدعوة، بأن يدخلوا فى دين الله، ارتج عليهم، وقالوا ملاينين:

– يا أبا القاسم، دعنا ننظر فى أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه.

وانصرفوا..

ولما خلوا إلى بعضهم، سألوا العاقب:

– يا عبد المسيح، ماذا ترى؟.

قال عبد المسيح:

– والله يا معشر النصارى، لقد عرفتم أن محمدا نبى مرسل، ولقد جاءكم بالفصل فى صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم، فوادعوا الرجل، ثم انصرفوا إلى بلادكم.

فلما ثار بينهم النقاش، انتهوا إلى رأى الغلبة منهم، وأقبلوا على رسول الله ﷺ، وقالوا فى مودة:

– يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها فى أموالنا، فلكم عندنا رضا.

فلما سمعت يهود بمسالمتهم، ثاروا عليهم ثورة هائلة، وقالوا لهم:

– ما أنتم على شىء.

وردت النصارى على اليهود، قائلين:

– بل ما أنتم على شىء.

واشتد بينهم الخلاف واحتدم فى شدة حتى تسابوا، ثم انصرفوا مغاضبين.

وتنزل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [سورة البقرة – الآية ١١٣].

وحين تجهز وفد النصارى للعودة إلى ديارهم، تخير رسول الله ﷺ أبو عبيدة بن الجراح ليرافقهم، فيكون حكما فيما قد ينشب بينهم من خلاف، ومنذ ذلك اليوم أطلق على أبو عبيدة رضى الله عنه: حبر الأمة.